الخاتمة

الخاتمة

رسالة المراهقة

المراهقة قيمة: توشك رحلتنا للكشف أن تنقضي، قد أتاحت لك أن ترى - أو على الأقل هذا ما أتعشمه- أن للمراهقة أهمية كبيرة في حياة الكائن البشري. وربما تعتقد أن كل المشكلات التي تواجه الشباب عبء ثقيل على سن صغيرة عرف عنها الاضطراب وعدم الاستقرار ولا تصلح- كما يرى البعض- إلا للحلم أو التضجر. ولكن علم الشباب يمكننا من الاعتراض على هذا الوهم الخطير عند البالغين، إذ تدل دراسة المراهقة بالطرق العلمية للبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع. أن هذه الفترة تمتاز على العكس بالثراء بكل الإمكانيات وبتمهيدها الجاد لحياة البالغ حتى يمكن القول إنها الفترة التي تتحدد فيها معالم كل مصير.

وقد أحس بهذا الرواد الأوائل مثل ساندرسون sanderson وبادن باول Baden powell في إنجلترا، وليتز lietz ووينكين wyneken في ألمانيا، كما وضعت الحكومات بدورها الشباب في أول قائمة اهتماماتها فهل تقوم بإعداده؟ لا شك في ذلك، ولكن هناك سبباً آخراً لذلك. فبالإضافة إلى الرغبة في الاعتماد على العناصر الشبابية التي ربيت طبقاً

لـنظام الحكـم المعمـول بـه، وأن يمـثل نمطـاً للحـياة لـه جمالـه وروعـته، وأنـه يجـب أن يقـود كـل تطـور لاحـق فـي حـياة الفـرد. وقـد اعـتدنا ألا نعـول إلا علـى أحكـام الـرجل الناضـج ونـشاطه وكأنمـا لا يـوجد شـيء، آخـر سـابق لـه، وكـنا فـي ذلـك نـستجيب لمـيل مـنا للاسـتقرار. ولكـن مـا كـشفت عـنه بـلاد مـثل ألمانـيا وروسـيا وإيطالـيا مـن خـلال انتفاضـاتها، اكتـشفته فرنـسا أيـضاً بدورها، إذ إن للشباب قيمته التي يمكنها أن تعمق مفهومنا للحياة.

وربمـا كـان هـذا الكـشف الأخيـر فـي المـراهقة هـو أهـم مـا تـم فـيها مـن اكتـشافات، فهـو يـتعلق بظاهـرة الإحـساس الجماعـي الـذي نعـيش فـيه دون أن نقـيم لـه وزنـاً كـاملاً وأن نتنبأ بعواقبه. ويمكـن أن نجـد بعـض عناصـر هـذا الإحـساس واضـحة تمامـاً فـي الحـركة الرومانـسية التـي تـستمد جـزءاً مـن أصـالتها فـي قـيامها كـذوق وفلـسفة للمـراهقين؛ وكـان فـي انتـصارها نـصر للغنائـية والذاتـية. ونـصر لقـيم الـشباب علـى قـيم البالغـين، وهـو نـصر للعاطفـة علـى العقـل، وللمـثل الأعلـى علـى الحكمـة، وللحـركة علـى الجمـود. ويحـاول عـصرنا أن يحقـق فـي الحقـل الـسياسي والاجتماعـي مـا حققـته الرومانـسية فـي المجـال الفنـي، سـواء فـي الـشعر أو الموسـيقى أو التـصوير. أي فـي الفـنون الـثلاثة التـي تعـد مـرتعاً خـصباً للغنائـية. وهكـذا كـان الاهـتمام العمـيق بحـركات الـشباب مـثلا يكمـن فـي جهـودها لتحقـيق "حـياة "شـابة كاملة.

رسـالة المـراهقة: ولمـا كانـت المـراهقة تـرتبط بحقـيقة روحـية فإنهـا تعتبـر قـيمة فـي حـد ذاتهـا. ولمـا كانـت قـيمة، قامـت محـاولات لـتحديد رسالتها في حياة الفرد أولاً ، ثم في حياة المجتمع ثانياً.

ودورها في حياة الفرد هو أولاً إتاحة الفرصة له "كي يكتشف الكائنات"، أي أن يكتشف نفسه والآخرين كذلك، أو الأنا والأنت كما يقول بوبير M. Buber وأن يلم بها في حقيقتها المثلثة، الفردية والاجتماعية والمثالية. وقد وضحت لك من قبل أن المراهق يحقق ذاته بالمعارضة وأنه يحس بنفسه باتصاله بالآخرين. ونتيجة لذلك لا يرى المراهق الآخرين إلا على صورته، أي ككائنات مفردة تسهم في الحياة الاجتماعية سواء تعلق الأمر بالأنا أو الأنت، فهو لا يرى هذه الكائنات إلا من خلال خياله العاطفي، في صورة شخصيات مثالية ذات ملامح رئيسية فقط.

أما الدور الثاني للمراهقة فهو إتاحة الفرصة للفرد لتوسيع أفقه إلى أقصى حد ممكن وبذلك كل قوته والتعرف على إمكانياته المختلفة قبل أن يقدم على اختيار قاطع يعلن عن بلوغه مرحلة النضوج. فالنشاط الذي تعرفه المراهقة لم يعد مجرد لعب كما في الطفولة، كما أنه ليس بالجهد الفعال الراسخ كما عند البالغ. ولكنه نوع من "اللعب الجاد" الذي يعبر عن التوجيه والارتباط والإعداد.

وهكذا تكون أهم ميزة للمراهقة هي أنها لا تبقى على الفرد في حالة سابقة للنضوج، ولكنها تدفع به إلى حدودها، وربما إلى أبعد من الحدود المتعارف عليها للإنسان. فالشباب بفضل خياله الفياض وفضوله متعدد الجوانب، هو أفضل مرحلة لما يمكن أن يسمى "بالتحول الفكري" ففيه تتكون الأفكار الجديدة ووجهات النظر الفردية وأنواع الإبداع الذي سيظهر في المستقبل، وكل ما تعتمد عليه رسالة كل فرد.

وأخيراً تتيح المراهقة لاتجاهاتنا الأساسية إزاء الحياة أن تنتظم، وعندما نصل لسن النضوج تعود إلينا ذكراها حية في ساعات الملل، فتكون لنا نبعاً دافقاً من الثقة والنضرة والصفاء.

وإذا كانت هذه رسالة المراهقة في حياة الفرد، فلعلك تحدس الآن ما يمكن أن تكونه في حياة البلد، إذ يجب أن تكون المراهقة أولاً وقبل كل شيء "العنصر الديناميكي (المحرك)" للجسم الاجتماعي، فهي مصدر الحماس والطاقة فيه، كما تبعد بقوتها عن الجماعة كل جمود وتصلب لأنها لا تزهد في التغيير كما هو الحال في سن النضوج، بل تحبه. وكذلك يجب أن تكون المراهقة "عنصر مثالية"، وهو العنصر الذي يتعطش دائماً للإخلاص وإنكار الذات. ويكره التآمر والخديعة، وبذلك يحمى قيمه الخلقية التي يفسدها التمادي في المرونة. وهكذا تستطيع المراهقة- بل وهذا ما يجب عليها- أن تسهم في سلامة الحياة العامة وتقويتها.

من أجل مراهقة متفتحة: ولا تقوم المراهقة برسالتها كاملة إلا بتوافر شرطين: فيجب أولاً "أن تتحقق وأن تتفتح وتزدهر عند الجميع"، وثانياً "أن تأخذ مكانها بالنسبة للحياة الإنسانية في مجموعها".

وقد رأينا كيف يمكن للتربية أن تعاون الشباب في نمو بمواجهة كل حدث هام في حياتهم البيولوجية النفسية. ولن أعود إلى هذا الحديث ثانية، ولكن هناك مشكلة خطيرة تعترض الكثيرين ممن اضطروا منذ وقت مبكر لتكسب حياتهم دون أن يكون لديهم الوقت الكافي

"للمراهقة"- إذا أمكنني أن أستعين بمثل هذا التعبير؛ ففي المزرعة، وبخاصة في المصنع، يصلون سريعاً للنضوج بالاتصال الدائم بالمبالغين من الغرباء، وكذلك بالخبرات المبكرة التي يحصلونها. فإذا كان الشباب في واقعه قيمة، كان من الواجب أن يتمتع كل العمال من الشباب بتذوق حلاوة الحياة الشابة، وأن نحميهم من المراهقة المبتورة بإطالتها بقدر الإمكان وبالسماح لهم بالتفتح في تنظيمات مرنة متنوعة مثل حركات الشباب، وبيوت الشباب، وأندية الشباب إلخ... وهناك مشكلة أخرى تواجه الطلبة، وليس لنا أن نخشى عليهم من مراهقة مختصرة ، بل على العكس من مراهقة طالت وزاد اقترابها من نمط الحياة في الطفولة. وهنا يجب مراعاة أن يشعر هؤلاء الشبان بالميل لأنواع النشاط الحقيقي، وأن نجنبهم الانطواء على أنفسهم لفترات طويلة وفقد الصلة بالحياة الاجتماعية. وهكذا يمكننا، بالحد من النوع الأول، ويدفع النوع الثاني، أن نقيم تماسكاً ووحدة بين الشباب بأن نسمح لكل فرد بتحقيق ذاته بطريقة طبيعية.

ولعلك تعرف ما يعنى "بإعداد الشباب"، ولا يكون هذا بتجمده لصالح حزب معين أو أيديولوجية معينة، ولكن بتفتحه في ذاته، ولا يكون باستبعاده لخدمة إطار واحد يختنق فيه، بل بتمرسه الدائم على العمل الشخصي. ويحتاج المربي الذي يود تحقيق هذه المهمة الصعبة لعقل واع وحب عميق للشباب، فعليه أن يهيئ الفرصة لتفتح القوى الكبيرة الكامنة في المراهق وربط كل إمكانياتها بالواقع مع حمايته في

نفس الوقت من التطرف، فهو عيب تتصف به طبيعته، فهذا يعني تحول التقليد إلى قلق والحماس إلى تعصب وتجميد روح الاستقلال في قالب من العصيان. ولكي نعد الشباب يجب أن نلهب إمكانياته وأن ننظمها، وبهذا الشرط وحده يمكن للشباب أن يقوم برسالته وأن يحقق الرفعة للوطن.

المولعون بالشباب: ويجب ثانياً أن يوضع الشباب داخل إطار الحياة حتى يصل إلى تحقيق أهميته كاملة وإلى معرفة حدوده. وقبل أن تثبت الحرب العالمية الثانية أن الشباب قيمة بشرية ثمينة وأن علينا أن نبحث فيها عن دروس قيمة، كنت أنادي بذلك كله، وجاءت الأحداث لتقوى عقيدتي هذه. ولكن الشباب ليس وحده هو كل القيمة مع أن الحماس قد يدفع البعض الآن إلى القسم به فهو في رأيهم نوع من الكمال السامي، ويرون أن كل المني في محاولة الاقتراب منه بقدر ما يمكننا . وهذا انحراف طبيعي جداً، ولكنه خطير.

وهو طبيعي لأن الإغراء فيه كبير إذ نرى في المراهقة أو فترة حمية الشباب أجمل لحظات العمر، وفي ميزات هذا للسن نموذجاً للكمال. وهو خطير لأن هذه الميزات لا يجب أن تحول أنظارنا عما بها من نقص، فإن رغبتها في المطلق ليست مطلقة، وعندما نرى فيها نوعاً من الإعجاز الحي فإننا نغرس في رؤوس الشباب زهواً وتباهياً لهما ضررهما، إذن علينا ألا نتمادى في الخلط بين القوة والعقل.

وألا ننسى أنه طالما كانت المراهقة قيمة إنسانية كان عليها أن

تنضم، ككل القيم الأخرى، إلى قيم أعلى منها، فالبطولة ليست فضيلة إلا بارتباطها بقيمة عليا، وهي القضية التي يدافع عنها الإنسان مضحياً في ذلك بحياته، وإلا انحرفت البطولة إلى عنف، وكذلك تتحدد المراهقية الخلقية كقيمة بالنسبة لحقيقة أعلى منها، وهي عزة الإنسان، فهي لا تستطيع أن تكتفي بنفسها، مثلها في ذلك مثل المراهقة البيولوجية أو النفسية، إذ إنها ليست سوى حلقة في سلسلة، ولا تأخذ لذلك قيمتها إلا إذا كان من الممكن تخطيها. وقد جعل اليونان من هيبي Hebe آلهة، ولكنها لم تكن الإرادة الإلهية العليا في الأولميت.

حقاً إن الشباب يمر سريعاً وأن العيون المتعطشة للجمال يحزنها أن ترى الزهرة وقد ذبلت ، ولكن ذلك لأنها تنسبي سبب وجود الزهرة، وهو الثمرة نفسها. وحقاً كذلك أن النضوج لا يعني دائماً بوعود الشباب وأنه كثيراً ما يبدو كما لو كان تهاوياً أو نكوصاً. ولكنه إذا كان نشاطنا بالاختيار الملزم، فإنه يزيد أيضاً من فعاليته، ولا يبدو تقهقراً من الناحية الأدبية إلا إذا قبلناه كذلك. إذ يتوقف علينا نحن أن يلي المراهقة نضوج جدير بها. وبعبارة أخرى، نضوج أسمى منها.

وكل مرحلة في نمونا تعتبر قيمة في واقعها. ولها رسالة خاصة بها، وعلى الرغم من تمايز هذه المراحل إلا أنها متماسكة إذ تترك كل منها في المرحلة التي تليها أثراً يزداد عمقه كلما استطاعت المرحلة الأولى أن تنمى إمكانياتها بطريقة كاملة. وهكذا يلهد القط الصغير، ولكنه فيما يمر بعد سيصير قادراً على اللعب مع صفارة، كذلك تعد المراهقة المثمرة

لانتصارات سيعرفها سن النضوج، كما أنها تستمر في التأثير عليه.

وبذلك يعتبر التغاضي عن المراهقة أو إنكارها إسفافاً، والأسف عليها ضعفاً ، والتمسك بها خطأ ولكن يجب أن يبقى فينا كل ما بها من خير كقوة مركز ومثل حي ومنهج للعمل نسعى لتحقيقه.

ولله يقول الحق وهو يهدي السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر